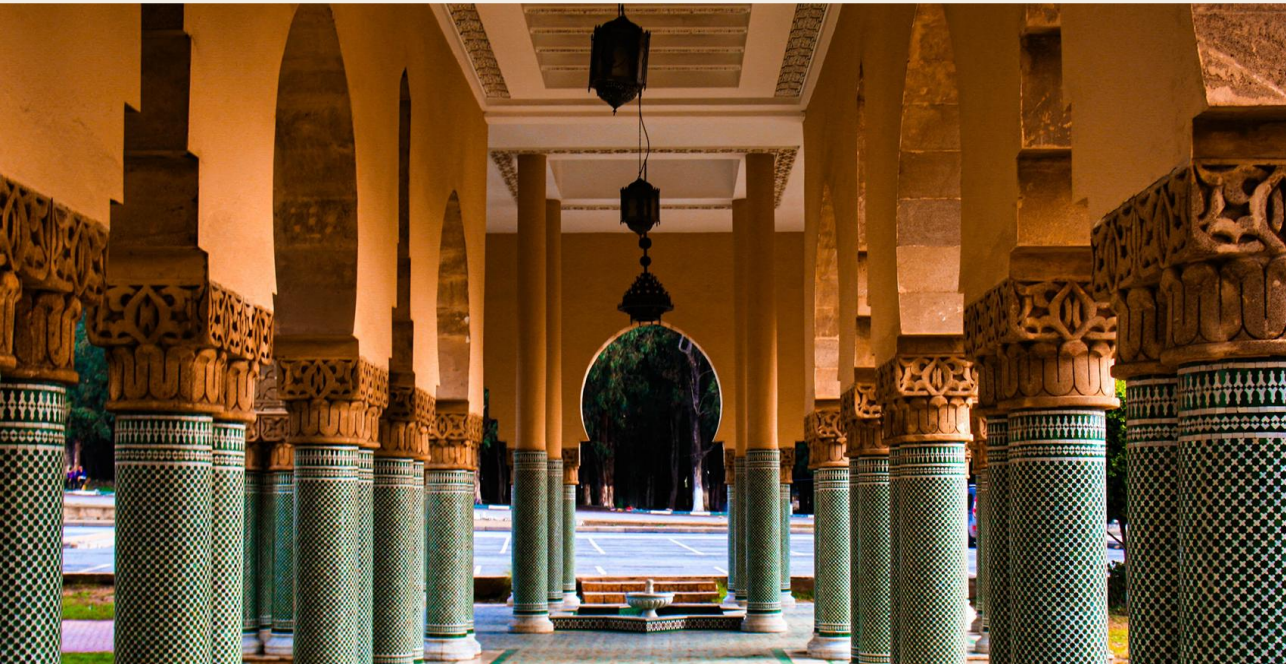


إثبات الكلام النفسي لله

الدكتور

عبد العزيز بن عبد الرحمن

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... أما بعد:

فإن الكلام في لغة العرب والشرع يشمل الكلام النفسي واللفظي، وبعبارة أخرى المعاني والحروف، ولا يُحمل على أحدهما إلا بدليل أو قرينة، وقد أجمع السلف على هذا - كما سيأتي بيانه إن شاء الله - وسأذكر النقولات عن أهل العلم في ذلك وما يسرّ الله من الأدلة، والسبب في ذلك أن جمعاً من أهل السنة يجهل إثبات الكلام النفسي لله مع الكلام اللفظي، وظنّ أن ردّ أهل السنة على الكلاية والأشاعرة في إثبات الكلام النفسي دون اللفظي يدل على عدم إثبات أهل السنة للكلام النفسي، بل حصل بين بعضهم خصومة ونزاع وتحديات؛ لأجل هذا كتبتُ هذه الرسالة المختصرة على عجل، واجتهدت أن أذكر فيها ما يحقق المراد والمبتغى دون تطويل.

أسأل الله التوفيق والسداد والرشاد والقبول، وأن ينفع بها أهل السنة إنه الرحمن الرحيم.

د. عبد العزيز بن ريس الريس

فصل: نقولات عن أهل العلم:

حرصت أن أبتدئ البحث بالنقولات عن أهل العلم من أئمة السنة كابن تيمية لتطمئن النفوس أنه ليس اجتهاذاً استنبطته ولا رأياً استحسنته، وإنما قول أهل السنة المجمع عليه.

قال ابن تيمية في (العقيدة الواسطية) - وهي لبيان عقيدة أهل السنة والأصل أن ما يذكر فيها مجمع عليه-: "وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف" (١).

وقال: "ويقولون عن أنفسهم إنهم أهل السنة الموافقون للسلف الذين قالوا: إن القرآن كلام الله غير مخلوق وليس قولهم قول السلف؛ لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه وقول الخلقية أقرب إلى قول السلف من وجه. أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون لله كلاماً قائماً بنفس الله وهذا قول السلف" (٢).

هذا النقل صريح في إثبات الكلام النفسي لله، بل والسلف على هذا.

وقال: "والصواب الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، أن الكلام اسم للحروف والمعاني جميعاً، فاللفظ والمعنى داخل في مسمى الكلام" (٣).

(١) «العقيدة الواسطية» (ص ٩٠) أضواء السلف.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢ / ١٣٢).

(٣) «التسعينية» (٢ / ٤٣٦).

وقال: "وعامة ما يوجد في الكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة، بل وسائر الأمم عربهم وعجمهم من لفظ الكلام والقول وهذا كلام فلان أو كلام فلان؛ فإنه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً لشموله لهما؛ ليس حقيقة في اللفظ فقط كما يقوله قوم؛ ولا في المعنى فقط كما يقوله قوم. ولا مشترك بينهما كما يقوله قوم. ولا مشترك في كلام الأدميين وحقيقة في المعنى في كلام الله كما يقوله قوم"^(١).

وهذا يوضح أن هذا هو معنى الكلام في اللغة، وأن إطلاقه على المعاني (النفسي) وحده حقيقة لا مجازاً وكذا إطلاقه على اللفظي (الحروف) حقيقة لا مجازاً، لكن لا يُحمل على أحدهما إلا بدليل أو قرينة، وتأمل كيف جعله الكلام عند العرب وغيرهم وعند السلف والأئمة، وهذا حكاية للإجماع، ثم بين أنه يشمل كلام الله كما يدل عليه تنمة كلامه.

وقال: "(فالكلام) إذا أُطلق يتناول اللفظ والمعنى جميعاً وإذا سمي المعنى وحده كلاماً أو اللفظ وحده كلاماً فإنما ذلك مع قيد يدل على ذلك"^(٢)، وهذا يؤكد ما تقدم.

وقال: "فَعُلْمُ أَنْ" الكلام المطلق "هو ما كان بالحروف المطابقة للمعنى"^(٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢ / ٤٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦ / ٥٣٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٢ / ٤٠٥).

وقال: "وقد تنازع الناس في مسمى الكلام في الأصل، ف قيل: هو اسم اللفظ الدال على المعنى، وقيل: المعنى المدلول عليه باللفظ، وقيل: لكل منهما بطريق الاشتراك اللفظي، وقيل: بل هو اسم عام لهما جميعاً بتناولهما عند الإطلاق وإن كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة. هذا قول السلف وأئمة الفقهاء" (١).

وقال: "والناس لهم في مسمى "الكلام" و "القول" عند الإطلاق أربعة أقوال فالذي عليه السلف والفقهاء والجمهور أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً كما يتناول لفظ الإنسان للروح والبدن جميعاً. وقيل: بل مسماه هو اللفظ والمعنى ليس جزء مسماه بل هو مدلول مسماه وهذا قول كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وطائفة من المنتسبين إلى السنة وهو قول النحاة لأن صناعتهم متعلقة بالألفاظ. وقيل: بل مسماه هو المعنى وإطلاق الكلام على اللفظ مجاز لأنه دال عليه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه وقيل: بل هو مشترك بين اللفظ والمعنى وهو قول بعض المتأخرين من الكلابية ولهم قول ثالث يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين" (٢).

في هذين النقلين أن السلف والفقهاء مجمعون على أن الكلام يتناول اللفظ (الحروف) والمعنى (النفسي)، وأن مبحث الكلام والقول واحد في هذا الصدد، وأن قول الكلابية والأشعرية إثبات المعنى وهو النفسي فحسب.

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٦٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/١٧٠).

وقال: "قول من يقول: بأنه معنى واحد قديم قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان تورا، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره" ^(١)، التعبير بالمعنى مرادف للتعبير بالنفسي، ويؤكد أنه هو قول الأشاعرة وهو إثبات الكلام النفسي أو المعنوي.

وقال في (منهاج السنة) مختصرًا: "وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال:

أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من معاني، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه، وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه، كالأشعري وغيره.

ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث.

وخامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلمًا، وهذا قول الكرامية وغيرهم.

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية - رشيد رضا» (٣ / ١١٣).

وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعبر، ويميل إليه الرازي في المطالب العالية.

وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائما بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه.

وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة^(١).

جعل القول الثالث قول الأشاعرة وعبر بالمعنى لا النفسي لأنهما مترادفان فيما نحن بصدده.

وقال: "وأما سلف الأمة وأئمتها فإنهم يقولون بالوسط وهو الثالث أن الكلام عند الإطلاق يتناول الحروف والمعاني جميعاً، وقول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل» به يُفَرَّق بين الحديث المقيد بالنفس وبين الكلام المطلق"^(٢).

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٥٨).

(٢) «الاستقامة» (١/ ٢١١).

في هذا تأكيد ما تقدم من الإجماع، وفيه أنه يُحمل عليهما عند الإطلاق ولا يُحمل على أحدهما إلا بقريته، وفيه استعمال المعنوي استعمال النفسي، لذا استدل بحديث يتعلق بالكلام النفسي: «**عما حدثت به أنفسها**»^(١).

وقال: "فقوله: «حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به» دليل على أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق وأنه ليس باللسان"^(٢).

وقال: "فإن الكلام الذي يتكلم به الإنسان يتضمن فعلا كالحركة ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف والمعاني؛ ولهذا يجعل القول قسيماً للفعل تارة وقسماً منه أخرى. فالأول كما يقول: الإيمان قول وعمل. ومنه قوله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»"^(٣).

هذان النقلان يؤكدان ما تقدم.

قال شيخنا ابن عثيمين: "قوله: "وهو كلام الله؛ حروفه ومعانيه": هذا مذهب أهل السنة والجماعة؛ قالوا: إن الله تعالى تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه.

قوله: "وليس كلام الله الحروف دون المعاني": وهذا مذهب المعتزلة والجهمية؛ لأنهم يقولون: إن الكلام ليس معنى يقوم بذات الله، بل هو شيء من

(١) البخاري (٧ / ٤٦) رقم: (٥٢٦٩)، ومسلم (١ / ٨١) رقم: (١٢٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥ / ٣٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٢ / ٥٦٢).

مخلوقاته؛ كالسماء والأرض والناقة والبيت وما أشبه ذلك! فليس معنى قائما في نفسه، فكلام الله حروف خلقها الله عز وجل، وسماها كلاما له، كما خلق الناقة وسماها ناقة الله، وكما خلق البيت وسماه بيت الله.

ولهذا كان الكلام عند الجهمية والمعتزلة هو الحروف؛ لأن كلام الله عندهم عبارة عن حروف وأصوات خلقها الله عز وجل ونسبها إليه تشريفا وتعظيما.

قوله: "ولا المعاني دون الحروف": وهذا مذهب الكلابية والأشعرية؛ فكلام الله عندهم معنى في نفسه، ثم خلق أصواتا وحروفا تدل على هذا المعنى؛ إما عبارة أو حكاية" (١).

تأمل كيف استعمل شيخنا الكلام المعنوي بالنفسي؛ وذلك أنه معنى قائم بالنفس.

(١) «شرح العقيدة الواسطية - العثيمين» (٢ / ٩٩).

فصل: الأدلة على أن الكلام والقول شامل للفظي والنفسي أو

الحروف والمعاني:

الدليل الأول: أن الأدلة لما أرادت الكلام النفسي والمعنوي دون اللفظي

والحرفي استثنته، فدل على أنه شامل للجميع، قال تعالى: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧] وقال: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وفيما نحن بصدد القول والكلام واحد كما تقدم في كلام ابن تيمية وما نقله عن السلف.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز عن أمي ما حدثت به أنفوسها ما لم تعمل أو تتكلم»^(١).

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»^(٢)، وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منهم»^(٣).

(١) البخاري (٤٦ / ٧) رقم: (٥٢٦٩)، ومسلم (١ / ٨١) رقم: (١٢٧).

(٢) قال عبيد الله المباركفوري في «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٧ / ٣٨٤): «ذكرته في نفسي» أي في ذاتي من غير إطلاع أحد من مخلوقاتي.... والنفس هي الذات المتصفة بالصفات كما ذكره ابن تيمية في كتابه بيان تلبيس الجهمية (٧ / ٤٤٧)، والمراد أنه يذكره سرًا لأنه المقابل لذكره علانية في ملا.

(٣) صحيح البخاري (٩ / ١٢١: ٧٤٠٥) «صحيح مسلم» (٨ / ٦٢: ٢٦٧٥).

وأخرج البخاري عن عمر أنه قال: "وكنت زورت مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر" (١).

الدليل الثاني: الإجماع الذي عليه أهل السنة كما حكاه ابن تيمية في مواضع - فيما سبق نقله - وذكر أيضًا أنه منصوص الإمام أحمد.

الدليل الثالث: إجماع أهل اللغة، وألفاظ الكتاب والسنة بلغة العرب كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] فما دلت عليه اللغة دل عليه الكتاب السنة.

وبعد هذا، إن مما يؤكد إجماع السلف أنهم يقرؤون هذه الآيات والأحاديث ولم يخالفوا مدلولها مما يدل على أنهم على هذا القول، وأنه إن أريد النفسي قيد وإذا أطلق شمل النفسي واللفظي، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

أسأل الله أن يحيينا على التوحيد والسنة ويميتنا على ذلك وأن نلقى الله راضيًا عنا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



(١) «صحيح البخاري» (٨ / ١٦٨ : ٦٨٣٠).